المحاضرة السادسة: القصص الشعبي وأنواعه.

تمهيد:

يشكل الأدب الشعبي والتراث الشعبي بشكل عام دعامة إنسانية في حياة الأقدمين والمحدثين، فقد كانت حقائق الظواهر لدى الناس في القديم قليلة ونادرة، حيث نسجوا الكثير من الأوهام حول الوقائع التي أدركوها ومن خلال هذا الإدراك خُلق نوع جديد يسمى الحكاية الشعبية .

تعد الحكاية الشعبية عمومًا بابا من أبواب الأدب الشعبي التي تم تناولها بشكل وباهتمام جاد ومحافظة على أصالتها وعراقتها وأهميتها التي لا تقف عند حد معين، حيث بقيت زمنا طويلا في صدور الرواة وفي ذاكراتهم إلى أن كُتب لها الخروج للنور والحفظ.

أولا ـ مفهوم الحكاية:

أ ـ لغة:

إن مصطلح الحكاية الشعبية له عدة تعريفات لغوية ، ففي "لسان العرب" تحت " فصل الحاء باب الواو والياء " نقرأ في مادة [حكي]: ((حَكَيْتُ فُلانًا وحَاكَيْتُهُ فَقُلْتُ مِثْلَ فِعْلِهِ أو قُلْتُ مِثْلَ قَوْلِهِ سَوَاءً لَمْ أُجَاوِزْهُ وحَكَيْتُ عَنْهُ الحَدِيثَ، ويُقَالُ حَكَاهُ والمُحَاكَاةُ: المُشَابَهَةُ . ونَقُولُ: فُلَانٌ يَحْكِي الشَّمْسَ حُسْناً ويُحَاكِيهَا))[1].

أما في "مختار الصحاح" مادة [ح ك ى]: ((حَكَيتُ عَنْهُ الكَلَامَ حكَايَةً، وحَكَوتُ لُغَةً حكاها وحَكَيتُ فِعْلَهُ وحاكَيتُهُ، والمُحَاكَاةُ :المُشَابهة. ويُقَالُ فُلَانٌ يَحْكِي الشَّمْسَ حُسْناً ويُحَاكِيهَا))[2].

الحكاية مشتقة من المحاكاة، أي محاكاة الواقع واسترجاعه وهذا الوصف مشتق من شكلها المعروف والمتداول، حيث يؤكد "السارسي" ((أن الحكاية لا تكتفي بمحاكاة الواقع وإنما تطمح إلى نقده وتغييره))[3].

كما نجد كذلك "عبد الحميد يونس" يؤكد على أن ((مصطلح الحكاية يدل على أن المقصود منه ليس مجرد الإخبار والسرد والقصص، ذلك أن الحكاية لغة تدل على المحاكاة والتقليد (...)، ثم تطور المصطلح وتنوعت أجناس التعبير فيه حتى تداخلت فيه المحاكاة مع الخبر والسرد والقصص وارتبطت الحكاية بعد ذلك بأنواع من السرد..))[4].

ب ـ اصطلاحا:

تعتبر الحكاية الشعبية إحدى أشكال الأدب الشعبي فهي من أقدم وأهم الموضوعات التي ابتكرتها الجماعة الشعبية،لكي تعبر بها عن أحاسيسها وخيالاتها، فهي شكل عريق من أشكال التعبير الإنساني الذي بدأ مع بداية الحضارة الإنسانية،كما أنها تمثل جزءاً مهماً من تراث الشعوب، حيث تتجسد فيها شخصية الأمة

---

[1]ـ أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، دت، مادة: حكى، ص 19 .

[2]ـ أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، دار الكتب العالمية ،لبنان، 1999، ص 204 .

[3]ـ عمر السارسي، الحكاية الشعبية، ص121.

[4]ـ عبد الحميد يونس، معجم الفلكلور ، مكتبة لبنان، ط1، 1983، ص 113.

وروحها القومية فهي تطلعنا بوضوح وصراحة تامة على موقف الشعب من أحوال عصره السياسية والاجتماعية....، فهي غنية بالمقولات الفكرية و أسلوبها النظري التأملي الذي يرى بها الإنسان وجوده والوجود المحيط به.

يعرفها "أحمد زياد" محبك بقوله: ((الحكاية الشعبية هي أحدوثة يسردها راوي في جماعة من المتلقين، وهو يحفظها مشافهة عن راوي أخر ولكنه يؤديها بلغته، غير متقيد بألفاظ الحكاية، فإنه يتقيد بشخصياتها وحوادثها،ومجمل بنائها العام)) [5].

وتعرفها "نبيلة إبراهيم" كذلك على أنها ((الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية من جيل لأخر أو هي خلق حر للخيال الشعبي ينسجه حول حوادث مهمة وشخوص ومواقع تاريخية)) [6].

فالحكاية هي اللسان الناطق باسم الشعب الذي يلجأ لسرد الحكاية بكل حكمة و بلاغة فنية، فهو يستريح عند سماعها، لكونها تنفيسا عن المكبوتات المتواجدة في النفس البشرية ، فالمجتمع أو الشعب قالها وسمعها من أجل تحقيق غاية ما، بالإضافة إلى أنها ((ليست واقعا فنيا محليا فحسب، بل هي فن عالمي عرفته كلّ الشعوب ومارسته، وهي كذلك جزء من مادة تراثية ضخمة يشملها مصطلح(قصص) ولعل كونها مازالت حيّة في أوساطنا هو الحافز لدراستها)) [7].

أما "عبد الحميد بورايو" فيعرفها على أنها ((أثر قصصي ينتقل مشافهة أساسا، يكون نثريا ويروي أحداثا خيالية لا يعتقد راويها ومتلقيها في حدوثها الفعلي وتنسب عادة لبشر والحيوانات والكائنات الخارقة)) [8].

ثانيا ـ خصائص الحكاية الشعبية:

الحكاية الشعبية لون قديم من ألوان الأدب الشعبي يؤلفه الشعب ويحتضنه في آن واحد،ومن خلال هذا تتسم الحكاية الشعبية بمجموعة من الخصائص التي تميزها عن الأنواع الأدبية الأخرى، فمن جملة هذه الخصائص نذكر ما يلي:

ـ تلقى الحكاية الشعبية بلغة خاصة متميزة، ليست لغة الحديث العادي، مما يمنحها قدرة الإيحاء والتأثير وغالبًا ما يكون هذا الإلقاء مصحوبا بتلوين صوتي، يتناسب مع المواقف والشخوص.

ـ تبدأ الحكاية الشعبية ببداية ثابتة محفوظة مثل:"كان يا مكان يا قديم يا زمان، نحكي وإلا ننام، إلا نصلي على محمد بدر التمام، كان في قديم الزمان....."

---

[5] ـ أحمد زياد محبك، من التراث الشعبي، دراسة تحليلية لحكاية الشعبية، لبنان، ط2005،1، ص 19.

[6] ـ نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 91.

[7] ـ مبروك دريدي، القصة الشعبية في منطقة سطيف، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، تخصص: الأدب الشعبي، جامعة قسنطينة، 2003، 2004، ص 1.

[8] ـ عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري،دار القصبة لنشر، الجزائر، دت، ص185.

ـ كما تقدم الحكايات الشعبية شخوص غير بشرية، تقوم بأدوار فريدة ومتميزة، وغالبًا ما تكون وفية للإنسان، ومخلصة له، أو تساعده على الخلاص.

ـ الحكاية الشعبية تقدم قصة ذات بداية ونهاية، متكاملة، تمتاز بالتماسك، وقوة الحبكة والبناء وهي تعتمد على حوادث كثيرة، غالبا ما تكون غريبة و نادرة[9].

كما تبين "حورية بن سالم" بعض الخصائص الفنية للحكاية الشعبية الأمازيغية، فتقول: ((تظهر في الحكاية الشعبية جمل وتعابير جاهزة، يستعين بها الراوي في السرد، فأغلب هذه الجمل تكون وصفية، حيث تحمل في ثناياها فكر إنساني، كما تتخذ من العلاقات القائمة بين الحاكم والمحكوم، والسيد والعبد، والرغبة والسلطان مواضيعًا لها، كما نلاحظ في الحكاية وجود تسلسل منطقي يمثل وحدة عضوية تكاملية تحكم الإطار السردي للحكاية بالإضافة إلى أنها تعبر عن حالات مأساوية لها صدى عميق في النفس الإنسانية))[10].

كما تتميز الحكاية الشعبية بالعراقة هذا ما أوضحهُ "عبد الحميد يونس" في قوله: ((الحكاية الشعبية عريقة أي أنها ليست من ابتكار لحظة معية أو موقف معين، كما أنها تنتقل من شخص إلى أخر بحرية ولا يزعم أحد أن الفضل يعود إليه وحده في أصلتها، ويكون هذا الانتقال في الغالب عن طريق الرواية الشفوية ،كما تتسم كذلك بالمرونة حيث تجعلها هذه الخاصية قابلة لتطور بحيث يضاف إليها أو يحذف منها، أو تعدل عباراتها ومضامينها وعلاقاتها على لسان الراوي الجديد تبعا لمزاجه أو موقفه أو ظروف بيئته الاجتماعية))[11].

فالحكاية الشعبية تحمل في سطورها وبين كلماتها شيئا من الجدية والهزل، كما أنها تتسم بسعتها وقدرتها على حمل أجناس أدبية أخرى، كالمثل والشعر، فهي عبارة عن وثائق للتاريخ ومحاكاة للفنون غير لغوية، بالإضافة إلى أن الحكاية الشعبية لا يعرف مؤلفها، وهذا ما يميزها عن النصوص الأدبية الأخرى و يكسبها طابعا شعبيا خاصا.

ثالثا ـ وظائف الحكاية الشعبية:

تؤدي الحكاية الشعبية دور الترجمان الذي يعبر عن أحاسيس ومشاعر النفس البشرية؛ حيث يحقق من خلالها الإنسان رغباته التي يعجز عن تحقيقها في الواقع، فالحكاية كما يراها أحد العلماء ((تحقق للإنسان الشعبي حياة العدالة و الحب التي يعلم بها))[12].

فإلى جانب دورها الترفيهي فإنها تؤدي وظيفة النقد لبعض الأغلاط وسلوكات الشعب غير الواعية إلى جانب هذا فإنها تنقد الفساد الذي يسود الناحية الاجتماعية والأنماط السلوكية الشعبية المختلفة، ومنه يمكن تحديد الوظائف الآتية للحكاية الشعبية:

1 ـ التسلية والترفيه و الترويح عن النفس.

---

[9] ـ أحمد زياد محبك، التراث الشعبي، دراسة تحليلية للحكاية الشعبية، ص 19ـ25.

[10] ـ حورية بن سالم، الحكاية الشعبية في منطقة بجاية، دراسة ونصوص، ص49 ـ54.

[11] ـ عبد الحميد يونس، الحكاية الشعبية، ص 11.

[12] ـ نقلا عن: محمد سعيدي، الأدب الشعبي بين نظرية والتطبيق، ص68.

2 ـ تثبيت القيم الثقافية والمعتقدات والعادات الاجتماعية الأصلية.

3 ـ النصح والإرشاد والموعظة.

4 ـ التوجيه السياسي والإيديولوجي.

5 ـ نقد ونبذ بعض الأخلاق والأنماط السلوكية الاجتماعية.

6 ـ تمجيد سير الأنبياء والرسل والصحابة والتابعين وسير الأبطال.

من خلال ما سبق، تتبين الوظائف المختلفة التي تؤديها الحكاية الشعبية؛ حيث تحتل مكانة كبيرة في حياة الإنسان البدائي أو المعاصر، ويرجع هذا إلى ارتباطها بمواقفه ومعتقداته، فهي بمثابة المرآة التي تعكس الخيال الفكري والنفسي والاجتماعي، كما تعكس كذلك الواقع المعاش، فهي تمثل الوعاء الذي يحتوي آمال الشعوب من جهة وطموحاتهم من جهة أخرى، فالحكاية الشعبية هي ذلك التراث الذي يحمل ملامح الشعب، ويعبر عن همومه، وانشغالاته داخل الجماعة التي ينتمي إليها.

رابعا ـ تصنيفات الحكاية الشعبية:

تستوعب الحكاية الشعبية أنماطا سردية وأنواعا قصصية مختلفة، وتستهدف كذلك وظائف متنوعة، هذا ما جعل علماء المأثورات الشعبية يهتمون بدراسة طبيعة الحكاية الشعبية وتحديد أنواعها المختلفة، وذلك من خلال وضع قواعد وأسس تحكم التصنيف المراد وضعه، فمنهم من صنف الحكاية الشعبية وفق الوظيفة التي تؤديها، ومنهم من اهتم في تصنيفه بالمضمون أي القيمة التعبيرية لحكاية، ومنهم من وضع تصنيفًا للحكاية الشعبية من خلال إسقاطها على البيئة الشعبية وإعطائها قالبًا شعبيًا يساير تلك البيئة التي تنتمي إليها. ومن جملة هذه التصنيفات نخص بذكر بعض الباحثين والمختصين في المجال المأثورات الشعبية ونذكر منهم:

1 ـ تصنيف نبيلة إبراهيم:

اعتمدت في تصنيفها للحكاية الشعبية على البعد الوظيفي؛ حيث انطلقت من الوظيفة والقيمة التعبيرية التي تؤديها الحكايات الشعبية، وذلك من خلال الحياة الشعبية التي يعيشها الإنسان؛ حيث تقول: "يجدر بنا أن نصنف الحكايات الشعبية التي تمثل جوانب الحياة المختلفة حسب محتواها إلى الموضوعات الآتية[13]:

ـ حكايات الواقع الأخلاقي.

ـ حكايات الواقع الاجتماعي.

ـ حكايات الواقع السياسي.

ـ حكايات تكشف عن موقف الإنسان الشعبي من العالم الغيبي.

ـ حكايات المعتقدات.

ـ حكايات الهزلية.

---

[13]ـ نبيلة إبراهيم، قصصنا الشعبي، من الرومانسية إلى الواقعية، ص162.

2 ـ تصنيف عمر السارسي:

يعتبر "عمر السارسي" من أهم الباحثين الذين ساهموا في وضع تصنيفًا لحكاية الشعبية، حيث صنف الحكايات حسب موضوعاتها ووظائفها فوجد أن الحكاية تتنوع بتنوع مدلولاتها، فصنف الحكاية كالتالي[14]:

ـ حكايات الواقع الاجتماعي.

ـ حكايات خرافية.

ـ حكايات الحيوان.

ـ حكايات المعتقدات.

ـ حكايات تجارب الشخصيات.

ـ حكايات الشطار.

مما سبق ،نجد أن "عمر السارسي" اعتمد في تصنيفه على الدور والوظيفة التي تؤديها الحكاية الشعبية وذلك من خلال المنشأ الذي نشأت فيه.

3 ـ تصنيف عبد الحميد يونس:

وضع "عبد الحميد يونس" تصنيفًا للحكاية الشعبية على حسب الموضوعات التي تدور حولها، فقسم الحكاية الشعبية إلى:

ـ حكايات الجان.

ـ حكايات السير الشعبية .

ـ حكايات الشطار .

ـ حكايات المرحة.

كما أضاف نوعا آخرًا للحكاية الشعبية المتمثل في حكايات الألغاز، والذي يقول عنها: ((فحكاية اللغز الشعبي تعد بمثابة المرفأ الأمين أو الرمز الغامض الذي يلجأ إليه الفقراء والأميون لإعلان عدم رضاهم عن احتكار الأغنياء وتسليط الحكم واستعلاء الأدباء الرسمين وأصحاب الفتاوى من العلماء))[15].

فتصنيف عبد الحميد يونس يشبه إلى حد كبير تصنيف نبيلة إبراهيم إلا أنه يسلك طريقة تختلف عن التصنيفات الأخرى.

---

[14]ـ عمر السارسي، الحكاية الشعبية، ص 232.

[15]ـ عبد الحميد يونس، الحكاية الشعبية، ص103.

4ـ تصنيف حورية بن سالم:

كما نجد تصنيفا آخرا للباحثة الجزائرية "حورية بن سالم"؛ حيت اعتمدت في دراستها للحكايات الشعبية الأمازيغية، منطلقة من البناء التركيبي لها فتقول: ((لقد انصبت اتجاهات الباحثين الأولين على الأخذ بالمحتوى في عملية تصنيف أشكال التعبير الشعبي ،دون النظر إلى القصص الشعبي من ناحية بنائه التركيبي))[16].

فتبين من خلال دراستها و تحليليها للحكاية الشعبية الأمازيغية أنواعا مختلفة، هي[17]:

ـ حكايات الواقع الاجتماعي.

ـ حكايات الحيوان .

ـ حكايات خرافية.

ـ حكايات المعتقدات الدينية .

ـ حكايات المرحة.

ـ حكايات الألغاز.

كما أضافت نوعا أخر من الحكاية والمتمثل في "حكاية التواتر" وتقصد بها تلك الحكاية التي يغلب عليها الطابع التعليمي.

5ـ ـ تصنيف سعيدي محمد:

فقد ذكر في تنظيره للحكاية الشعبية صنفين مختلفين عن الأصناف التي ذُكرت قبلاً؛ حيث اعتمد على العناصر الداخلية التي تتشكل منها الحكاية، بالإضافة إلى العنصر الموضوعاتي الذي يميز حكاية عن أخرى، فمن خلال هذه الدعامة وضع التصنيف الأتي[18]:

ـ التصنيف الأول: يعتمد على العناصر الداخلية المختلفة كالأبطال والخوارق والجن والحيوان.

ـ التصنيف الثاني: يعتمد على العنصر الموضوعاتي كالحب ،الإخلاص والدين والكراهية أو بالاعتماد على المحاور الكبرى لنصوص الشعبية ذات النزعة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية.

6ـ تصنيف عبد الحميد بورايو:

يعتبر "عبد الحميد بورايو" من أهم الباحثين الذين اهتموا بالتراث الشعبي وبخاصة الحكاية الشعبية التي خصص لها جزء كبير من الدراسة.، وقد اعتمد في تصنيفه للحكاية الشعبية على مراعاة العناصر الثابتة للحكاية بالإضافة إلى اختلاف ظروف القصص ومناسبتها ونوعية الرواة، حيث نجده يقول: ((فقد عملت على مراعاة العناصر الثّابتة ذات الطّبيعة الشّكليّة بصفة أساسيّة، إلى جانب ذلك استندنا على التّميزات الّتي عيّنها حملة التّراث وعلى اختلاف ظروف أداء القصص ومناسباته ونوعيّة الرّواة، والوسط الّذي يقبل عادة على تلقّي

---

[16]ـ حورية بن سالم، الحكاية الشعبية في منطقة بجاية، ص 69.

[17]ـ المرجع نفسه، ص 70.

[18]ـ سعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ص 62.

النّوع القصصيّ، إلى جانب ذلك حاولنا أن نتتبّع الظّروف التّاريخيّة الّتي تطوّر فيها كلّ نوع وكلّ شكل فرعيّ. رأينا أن نميّز بين أصناف أساسيّة وأخرى فرعيّة، حسب الجدول الآتي:

الأصناف الأساسيّة	*قصص البطولة	*الحكايات الخرافيّة	*الحكايات الشّعبيّة
الأصناف الفرعيّة	-قصص البطولة البدويّة. -قصص المغازي -قصص الأولياء -قصص الزّهّاد -قصص الخارجين عن القانون. -قصص الثّوّار	-الحكايات الخرافيّة الخالصة. -حكايات الأغوال الغبيّة	-حكايات الواقع الاجتماعي. -الحكايات المحلّيّة -حكايات الحيوان -النّوادر

تتمايز هذه الأصناف فيما بينها في أصولها وفي مسار تطوّرها وفي الظّروف الحضاريّة التي ساعدت على نشأتها وعلى انتشارها، وهي تختلف فيما بينها في مكوّناتها الفنّيّة وفي أسلوب تعاملها مع ما يشغل الإنسان من مشاكل ميتافيزيقيّة، مثل الحياة الأخرى والعالم المجهول الخ... وكذلك في طبيعة الشّخصيّات الّتي تسند لها الأدوار، وفي طبيعة الأحداث، وفي المنطلقات الفكريّة الّتي يصدر عنها الموقف القصصيّ، وفي الوظائف))[19].

خاتمة:

إن تعدد تصنيفات الحكاية الشعبية يرجع إلى تعدد الموضوعات التي يطرحها الحكي الشعبي هذا ما أوقع بالحكاية الشعبية في مشكلة التصنيف، فهناك من اعتمد في تصنيفه على وظيفة الحكاية ومنهم من اعتمد على الموضوع والقيم التعبيرية التي تؤديها الحكاية.

[19]- عبد الحميد بورايو، تصنيف القصص(بحث في مسألة تصنيف القصص الشعبي)، مخطوط ،ص7،8.